الفصل الرابع

في نقد قراءة حسن حنفي للفكر العربي الحديث[1]

مقتطفات من سيرة الأستاذ:

حسن حنفي مفكر مصري من مواليد 1935م. وأحد أهم أصحاب المشاريع الفكرية المعاصرة في العالم العربي. التحق بكلية الآداب جامعة القاهرة في 1952، وانضم لجماعة الإخوان المسلمين في نفس الفترة. ولكنه انشق عنهم بسبب الخلاف حول ثورة مصدق في إيران. ثم تحول إلى الناصرية في 1956 بعد تأميم قناة السويس.

كاد أن يُفصل من الجامعة وهو في الفرقة الرابعة بسبب خطاب موجه إلى عميد الكلية. كان يكتب الخطاب وبجواره ضابط الحرس. وبدأ الخطاب بـ (الأخ الفاضل عميد كلية الآداب). فسأله الضابط: لماذا لا تبدأ الخطاب بالصيغة المعتادة (السيد الأستاذ). فقال للضابط: لا سيد إلا الله. فتمت إحالته إلى مجلس تأديب. ودافع عن موقفه أمام أساتذة المجلس مؤكدا

(1) بقلم: د. كرم عباس، أستاذ الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

أنه لا فرق لديه بين رئيس الجمهورية وكناس الطريق إلا في أداء الواجب. فتعجب الأساتذة من جرأته، ورفعوا عنه تهمة التعدي على إدارة الجامعة.

سافر إلى فرنسا في 1956 للحصول على الدكتوراه. ولم تكن هناك منح جامعية بسبب الحرب. ولم يكن في حقيبته فيما يقول سوى الخبز وقطع من الجبن عاش عليها لأسابيع قبل أن يجد عملاً. وكان يدرس الفلسفة والموسيقى في نفس الوقت. فكان يذهب إلى السوربون بالنهار للاستماع إلى محاضرات الفلسفة، ثم يذهب إلى الكونسرفتوار للاستماع إلى محاضرات الموسيقى وتعلم عزف الكمان. وطوال ذلك كان يأكل مرة واحدة في اليوم. لم يستطع جسده تحمل هذا الإنهاك. حجز في مستشفي الجامعة لمدة أربعة أشهر لتناول العلاج ولتناول 4 وجبات في اليوم. وأجبره الطبيب على الاختيار بين الموسيقى والفلسفة، فقال: اخترت الفلسفة وأنا أغنيها.

وفي مقابلة بين عبد الحكيم عامر والطلاب في فرنسا، وقف حسن حنفي أمام المشير، وأخبره أن الخطب المكتوبة لاستقباله هي نفاق في نفاق، وأن الطلاب يعانون، وأن النظام في مصر يشجع على الاستبداد والطبقية الجديدة. فعاد المشير وأخبر عبد الناصر بما حدث، فطلبوا ممثلين عن الطلاب للذهاب إلى مصر، فحضر إلى مصر مع بعض الطلاب وناقش عبد الناصر في أحوال البلاد عام 1966م.

حصل حسن حنفي على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون برسالتين للدكتوراه عن «ظاهريات التأويل» و«تأويل الظاهريات»، استغرق في إعدادهما عشر سنوات. ثم عاد إلى مصر في 1967 وعين مدرسًا بكلية الآداب جامعة القاهرة. وفي 1971م نصحه رئيس الجامعة

بالسفر خارج مصر لأن محاضراته قد تم تسجيلها وأنه سوف يسجن بسببها. فترك مصر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليقوم بتدريس الفلسفة هناك في الفترة من 1971 إلى 1975م.

وكان حسن حنفي من بين الأساتذة الذين أخرجوا من الجامعة في 1980م بسبب معارضتهم لمعاهدة كامب ديفيد وسياسة الانفتاح والقطاع الخاص. وتم تحويله للعمل كموظف في وزارة الشئون الاجتماعية. فترك مصر وذهب إلى المغرب. وحقق فيها شهرة واسعة بسبب المحاضرات التي كان يلقيها هناك. وتعرض في إحدى محاضراته لنظام الحكم. فأصدر الملك قرارًا بطرده خارج البلاد خلال 24 ساعة، وتدخل البعض لتأجيل القرار حتى ينهي أبناءه ما تبقى لهم من العام الدراسي. وكتب مقالاً لطلابه المغاربة بعنوان (أتيت المغرب طائعًا وخرجت منه مكرهًا).

ترك المغرب إلى اليابان ثم إلى جنوب إفريقيا، ثم عاد إلى مصر في 1985م. وتولى رئاسة قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة في الفترة من 1988 إلى 1994م. أصبح أستاذًا متفرغًا بقسم الفلسفة منذ 1995م إلى الآن.

التراث والتجديد

عاش حسن حنفي نفس الأزمة التي عاشها مفكرو النهضة الأوائل، وهي أزمة الهزيمة. فالرواد الأوائل شغلتهم هزيمة الوطن أمام المستعمر الغربي. وكان سؤالهم المحوري: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ أما مشروع حسن حنفي فكان رد فعل على هزيمة يونيو 1967. ولم تكن الهزيمة مفاجئة بالنسبة له. فقد رأى أن الثورة وحركة التحرر قد انقلبت على نفسها

مولدة أنماطًا جديدة من الطبقية والاستبداد. ولم تكن الهزيمة سوى لحظة الفجاجة التي تجسد قتل حلم الطفولة والشباب في وطن حر وديمقراطي.

آمن حنفي بأن الأزمة تكمن في الثقافة العربية والإسلامية. وانشغل بنقد تلك الثقافة ومحاولة تفكيكها بغرض إعادة بنائها من جديد ليشارك بذلك في تأسيس اليسار الإسلامي عبر تثوير النصوص القديمة والتراثية. فلم يؤمن بضرورة نقض التراث أو إحداث قطيعة معه. فالتراث فاعل في وعي الفرد والمجتمع. وربما هو المسئول عن أنماط الاستبداد وغياب الديمقراطية. فالتراث يكرس للخضوع والتبعية أكثر مما يكرس للثورة والتحرر والديمقراطية. وهنا يمكن العودة إلى الأصول وتفكيكها و إعادة صياغتها من جديد في شكل ثوري تقدمي.

والحضارة عند حسن حنفي هي كل ما تركه السابقون. ولا يمكن الانسلاخ عن الماضي أو إحداث القطيعة معه. فالموروث القديم متجسد في قلب الحاضر ولا يمكن تجاهله. والتطور التاريخي للشعوب لا يتم بطفرات فجائية. فهو عملية تحول تدريجي يشتمل فيها الجديد على القديم، والحاضر على الماضي. وينشغل مشروع التراث والتجديد بفهم الواقع المعاصر ومحاولة تغيره عبر تثوير الموروث القديم الفاعل في المخزون النفسي والثقافي.

وسعى حسن حنفي إلى اتخاذ موقف وسطي بين التيارات الفكرية المختلفة، وربما يكون ذلك هو جوهر الحيرة في تصنيفه. فهو يجمع بين التيار الديني بتوجهاته المختلفة، والتيار الليبرالي، والعلماني، والقومي، والماركسي... الخ. وعندما ينظر أصحاب تلك التيارات إلى نقاط الاتفاق بينه وبينهم يمتدحونه ويعتبرونه واحد منهم، وعندما ينظرون إلى تطابقه مع التيارات

المناقضة لهم، يهجونه ويذمونه ويعتبرونه عدوًا لهم. وجميعهم يتفقون على أن مشروعه الضخم هو من أهم مشاريع الفكر العربي المعاصر.

ويتكون مشروع التراث والتجديد من مجموعة ضخمة من المؤلفات منها: «من العقيدة إلى الثورة» لإعادة بناء علم أصول الدين، ومن «النقل إلى الإبداع» لإعادة بناء الفلسفة، ومن «النص إلى الواقع» لإعادة بناء علم أصول الفقه، ومن «الفناء إلى البقاء» لإعادة بناء علم التصوف، ومن «النقل إلى العقل» لإعادة بناء العلوم النقلية (القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه)، و«الوحي والعقل والطبيعة» لإعادة بناء العلوم الرياضية (جبر وحساب وهندسة وفلك وموسيقى، والطبيعية (كيمياء وطبيعة وطب وتشريح ونبات وحيوان وصيدلة)، و«الإنسان والتاريخ» لإعادة بناء علوم النفس والاجتماع والسياسة والتاريخ والجغرافيا واللغة والأدب. وقد خرج للوجود بالفعل عدد كبير من هذه الأعمال، بالإضافة إلى عمل مركزي آخر هو «مقدمة في علم الاستغراب» الذي شكل فاتحة القسم الثاني من المشروع، وهو إعادة فهم وتقييم الحضارة الغربية وتراثها كان يفترض أن تشتمل على ثلاثة أعمال: مصادر الوعي الأوروبي، وبداية الوعي الأوروبي، ونهاية الوعي الأوروبي. وأخيرًا يفترض ختم القسمين بما يشبه مركبًا هيجليًا يتمثل في 'نظرية التفسير' أو موقفنا من الواقع، وهي تقدم رؤية شاملة للعالم وموضع الحضارتين فيه، في ثلاثة أعمال أخرى: المنهاج، والعهد الجديد، والعهد القديم.

وهكذا يتشكل التراث والتجديد من جبهات ثلاثة: الموقف من التراث (الأنا) - الموقف من الغرب (الآخر) - الموقف من الواقع (التفسير). ويعد

تحليـل النصـوص محور منهجـي في الجبهـات الثلاثة. ويغلب عـلى الجبهتين الأولى والثانيـة التحليل الفلسـفي لنصوص الحضارة، أما الجبهـة الثالثة فهي تحليل للواقع المباشر.

وربما يتميز الـتراث والتجديد عن غيره من المشروعات بالجبهة الثالثة. فهـو مشروع شـديد الالتحام بالواقع ومشـكلاته. فمعالجته للتراث تختلف عـن معالجة عبد الرحمـن بدوي أو زكي نجيب محمـود أو غيرهما ممن تعاملوا مع الموروث الإسـلامي بأنه لم يقف عند الـتراث كهدف في ذاته، بل كآلية لاستكشاف وقراءة الواقع.

ولما كان التراث والتجديد مشروعًا واقعيًا فهو يصب جهوده منذ البداية على الأزمات الواقعية للمجتمعات العربية وقضاياها الحية. ويسـعى لتحليل الأسـباب التي تفشـل بسـببها كل محاولات التغيير التي تتنـاول هذا الواقع. ويردها إلى قصور في الفكر السـاعي للتغيير. فإما تتم محاولة التغيير بواسطة القديم فنقع في مشـكلات كالجمود الفكري وعدم القدرة على تحويل الفكر إلى إيديولوجيا سياسـية وسـيادة التعصب واللجوء للقوة والسعي لاغتصاب السلطة من دون كسب تأييد الجماهير، وهم مصدر هذه السلطة. بالإضافة إلى التشديد على المحرمات والعقوبات وسيادة التصور الجنسي للعالم. أو تتم محاولة التغيير بواسـطة الجديد فيقع في مشـكلات أخرى مثل الاستعلاء على الجمهور والتبعية للغرب ومعاداة التراث القومي والسـعي لاغتصاب السلطة كذلـك واللجـوء للعنف. وأخيرًا يسـعى اتجاه ثالث إلى التوفيـق بين القديم والجديـد فيقع في الترقيع والتلفيق كما ينتج إيديولوجيا إصلاحية وسـطية لا تقدر على التغيير الجذري.

والحل الذي يقترحه حسن حنفي في مشروعه هو «إعادة بناء العلوم التقليدية ابتداء من الحضارة ذاتها، بالدخول في بنائها، والرجوع إلى أصولها لبيان نشأتها وتطورها، سواء بالنسبة إلى كل علم أو بالنسبة لمجموع العلوم. ويتم ذلك بالإشارة إلى هذه الأصول نفسها، والبدء منها واستعمال لغتها، والتفكير مع مؤلفيها بدون أية إشارة إلى عوامل خارجية من ظروف أو تأثرات إلا إذا اعتبرت هذه الظروف كمثيرات وهذه التأثرات كتشكل كاذب. وهي العملية التي تتم بين اللغة والفكر، التعبير عن مضمون الفكر بلغة جديدة». وهكذا لا يتعامل حسن حنفي مع التراث كموضوع خارجي يجب العودة إليه أو نبذه أو التوفيق بينه وبين موضوع آخر، وإنما يجب التفكير من خلاله في الواقع، وإنتاج إيديولوجيا التغيير من داخله.

ويرى حسن حنفي أن العلاقة بالغرب قد تطورت تطورًا حاسمًا في القرنين الأخيرين، ورغم أن هذه العلاقة تمتد في الماضي زمنًا طويلًا، ما يعني حضور الآخر باستمرار في وعينا القومي والحضاري منذ القدم. فرغم ذلك لم تقم حتى الآن حركة نقد حقيقية له، إلا باستخدام مناهج الجدل والخطابة دون المنطق والبرهان. وتنقسم المواقف من الغرب إلى رفض حاسم وقاطع قائم على التعصب، أو تبعية عمياء تصل أحيانًا إلى حد الانبهار بكل ما هو غربي. ولهذا تسعى الجبهة الثانية لمشروع حسن حنفي إلى تقديم قراءة ناقدة للحضارة الغربية وتقييم حقيقي لها من وجهة نظر أنا غير دفاعية ولا مستلبة. فرغم الجلاء المادي للاستعمار يرى حسن حنفي أن العقول العربية لا تزال محتلة، وقد أدى هذا كرد فعل إما إلا التوجه نحو الآخر أو الرجوع إلى الأنا والانغلاق عليها. ويهدف الاستغراب إلى «إقامة حضارة إسلامية جديدة

بالإضافة إلى الحضارة التي ورثناها. وذلك لأننا في عصر مشابه للعصر القديم عندما واجه تراثنا الناشئ التراث اليوناني الوافد«.

ويمكن النظر للاستغراب باعتباره نقيضًا للاستشراق، فإذا كان هذا الأخير هو رؤية الشرق من خلال الغرب، ويعني هذا أن الغرب يأخذ دور الأنا ويصبح الشرق هو الآخر والموضوع المدروس للذات الأوروبية، وكانت نتيجة ذلك أن نشأ عند الأنا الأوروبي إحساس بالعظمة نتيجة كونه دارسًا ونشأ عند الشرقي إحساسًا بالدونية نتيجة كونه موضوعًا. يهدف علم الاستغراب إلى قلب الآية بهدف تحقيق التوازن وفك مركب عقدة النقص الناتج عن الاستشراق التاريخي، وهذا بأن يحيل الشرق دارسًا والغرب موضوعًا للدراسة. إلا أن هذا الاستغراب هو بحث نقدي حقيقي في الغرب وثقافته ولغته وحضارته، وليس مجرد موقفًا انفعاليًا بالرفض أو التأييد.

وينشأ علم الاستغراب في مواجهة التغريب الذي تتعرض له الحضارة العربية الإسلامية، والذي يمتد إلى جميع مظاهر حياتها وتصوراتها ولغتها. ويرى حسن حنفي أن معظم التيارات الفكرية الحديثة في الوطن العربي هي أقرب للتغريب من الأصالة، ويشمل هذا المشاريع ذات النزوع الإسلامي أو مشاريع الإصلاح الديني (الأفغاني) كما يشمل مشاريع الليبرالية السياسية (الطهطاوي) أو العقلانية العلمية (شبلي شميل)، لأن كل هذه المشاريع ترى الغرب نموذجًا للتقدم والتحديث. ومن ثم تسعى إما لتكييف الإسلام مع هذا النموذج أو البحث عن الجوهر الكامن للنموذج الغربي في الأصول الإسلامية، وإما تعمل على احتضان هذا النموذج مباشرة ونبذ تراثها.

لكن هذا لا يعني بالنسبة لحسن حنفي الوقوع في نظرة قومية واحدية واقعة في أسر ذاتها، بل يعني العودة للواقع الحضاري الحالي والبدء منه، لتجديد وتطوير الوعي بالذات وبالآخر وتكوين المواقف النقدية - غير الانفعالية - من الاثنين. كما يعني الاستغراب كذلك إفادة التراث الأوروبي والعالمي والإضافة إليه بإلقاء النظر عليه من وجهة نظر أخرى لباحثين محايدين، كما يفعل الباحثون الأوروبيون مع غيرهم من الحضارات. ولا يجب أن يستغل الحديث عن الفكر النابع من البيئة الثقافية الخاصة بنا، أو من مجتمعنا الشرقي، في رفض كل فكر علمي أو تقدمي لمجرد أن له نموذج مشابه في المجتمع والتاريخ الغربي.

وقد لاحظ حسن حنفي منذ بداية مشروعه أن المشكلة الحقيقية التي يعاني منها العالم العربي والإسلامي المعاصر لا تكمن في تقديم إجابات خاطئة أو طرح الأسئلة الخاطئة بقدر ما تكمن في الافتقار للمنهج المناسب للتعامل مع واقعها. »فالأزمة في المنهج قبل أن تكون في الموضوع. فالموضوع واحد منذ مائتي عام. لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم كما سأل شكيب أرسلان. أسباب التخلف وشروط النهضة كما عرض مالك بن نبي. والأزمة في كيفية المقاربة، التشخيص والحل، الوصف والمخرج، الإدراك والتغيير. لذلك كانت معظم الاكتشافات الفكرية والعلمية ونقاط التحول في تاريخ الحضارات اكتشافات المنهج وتحولات المنهج. وقديمًا قال عمر بن الخطاب أن نصف الإجابة في طريقة وضع السؤال.«

والإجابة المختصرة التي يعرضها حسن حنفي بالتالي عن سؤال المنهج هذا تتلخص في «التنظير المباشر للواقع»، أي تناول الواقع مباشرة بكل مكوناته،

وهـذا يعني التراث القديم الذي يشـكل جزءًا منه، كما يعـني كذلك الوافد الجديـد الذي يمثل جزءًا آخـر، بالإضافة إلى الكيفية التي يتجادل بها الاثنان والكيفيـة التي يتفاعلان بها مع الأزمـات المعاصرة للعالم العربي. فالالتفات للواقـع لا يعني على الإطـلاق إهمال المخـزون التراثي النفـسي كمكون من مكونات هذا الواقع، ولهذا يجب أن تعني نظرية التفسـير وفقًا لحسن حنفي بكل من التراث والوافد الجديد، وهي »محاولة لإعادة بناء الحضارة بالرجوع إلى مصدرها في الوحي أو إعادة تفسير الوحي كما هو بالرجوع إلى الحضارة الإنسانية الحالية وتخليصها من الركود التاريخي القديم، وهو ما يعادل «علوم القرآن» في تراثنا القديم.«

في نقد قراءة حسن حنفي للفكر العربي

تمثل قراءة حسـن حنفي للفكر العربي عقبـة حقيقية لابد من تجاوزها حتى يسـتمر التطور التاريخي المنشـود للفكر العربي. فقراءة حسن حنفي قراءة سياسية خالصة، تسيطر فيها قضايا الواقع على قضايا الفكر. وينتصر فيهـا تحريـر الأرض على تحرير العقـل. ويدافع فيها عـن التحرر أكثر من مدافعته عـن الحرية. ويؤسـس للديمقراطية السياسـية دون اعتبارها واقع اجتماعي وممارسة معيشية. فهي قراءة بنيوية، وليست تحليلية أو تفكيكية، ينتصر فيها الكل على حساب الجزء، وينتصر فيها لكلية المجتمع على حساب التعددية الفردية.

ويمكن لقراءة كهذه أن تتحول إلى نظرية شـمولية يصعب تجاوزها أو تقديـم قراءة مغايرة لها لدى المتأثرين بمدرسـته. وبعض تلامذته المباشرين

وقعوا في فخ أطروحته الأساسية. وحولوا القراءات إلى محض أيديولوجية سياسية انشغلوا فيها بفك شيفرة وأحجيات التراث على حساب قضايا الفرد والمجتمع. وتقف القراءات هنا عند حدود النقد والتفكيك، ويتحول الأمر إلى متعة عقلية وشغف عقلي نحو فضح وكشف أقنعة التراث القديم. ولم يدرك هؤلاء أنهم يعيدون فكرة أستاذهم، وأنهم على حد تعبيره لم يزرعوا شجرة خاصة بهم، بل يلتقطون ثمار الشجرة التي زرعها بنفسه. وربما لم يدرك الأستاذ نفسه أن الواقع المعاصر قد تجاوز إشكاليات التراث. وأن إعادة بناء العلوم القديمة والبحث في الأصول لن يغير من آليات الواقع التي تحكمه عوامل التسلط والسيطرة وتشكل مستمر ومتغير لمراكز قوى جديدة تتحكم في الواقع وتؤثر فيه كيفما تشاء.

وتتبنى قراءة حسن حنفي طريقًا وسطيًا بين الثنائيات. ويبدو أن الحفاظ على طريق وسطي في بعض الأحيان يكون ضربًا من ضروب التناقض الشديد. ويمكن تلمس هذا التناقض في جنبات مشروع حسن حنفي ككل، أو في قراءته للفكر العربي بشكل خاص. فحسن حنفي هو استمرار للتيار الديني الذي يمتد من جمال الدين الأفغاني إلى محمد عبده إلى رشيد رضا إلى سيد قطب (بنموذج العدالة الاجتماعية في الإسلام)، ورغم ذلك يشدد على قيم الوطنية والديمقراطية وهي مفاهيم غير واضحة المعالم في التيارات الدينية بشكل عام. فالديمقراطية ممارسة شعبية تقوم على الإخوة في الوطن، ولا تعترف بنموذج أهل الحل والعقد أو النخبة الدينية أو مكاتب الإرشاد.

وفي كتابه الأهم عن الفكر العربي الحديث وهو «حصار الزمن»، يكتب حسن حنفي عن «محمد باقر الصدر»، و«الخميني»، و«موسى

الصدر». فالهوية الدينية تسبق الهوية القومية. والرابطة الحقيقية هي رابطة الجامعة الإسلامية. والأقليات تلجأ إلى العلمانية لحماية نفسها من المشروع الإسلامي. وهي أفكار تمثل خطورة على الاستقلال الوطني لا تقل خطورة عن الاستعمار الإمبريالي الغربي.

والتقسيم الثلاثي لتيارات الفكر العربي، وهو التقسيم الذي يتبناه حسن حنفي، هو تقسيم سياسي في المقام الأول: التيار الإصلاحي (الديني)، والتيار الليبرالي، والتيار العلماني. وفي كتاباته أو محاضراته في الجامعة كان شديد الإخلاص في عرض تفاصيل تيار الإصلاح الديني فيما يشبه الترويج له على حساب الليبرالية والعلمانية. وينظر إلى الليبرالية والعلمانية على أنهما من نتاج الغرب. فينظر إلى ليبرالية رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي على أنها انبهار بما قدمه الغرب. وكلاهما حاول نقل المشروع الغربي بحثًا عن حداثة الدولة. ويضع العلمانية في نهاية «حصار الزمن». ويراها نتاجًا لمخاوف الأقلية المسيحية من المشروع الإسلامي.

وخوف الأقليات من المشروع الإسلامي خوف مشروع. والوطن العربي نسيج متشابك من الأقليات والأعراق والأصول والإثنيات...الخ. والدين قضية فردية وليس قضية اجتماعية. والوطنية والقومية لا تتفق والمشروع الإسلامي، ولا مع المشروع المسيحي، ولا مع أي مشروع ذات طابع ديني. وربما كان المشروع الديني منذ البداية هو المسئول عن حركات التطرف والعنف التي تشهدها ربوع الوطن العربي منذ عقود.

ولا توجد شخصية يتوحد معها حسن حنفي مثل شخصية جمال الدين الأفغاني. وربما يكون للأفغاني الأثر الأكبر في نفس حسن حنفي. وتوجد

سمات عديدة مشتركة بين الاثنين قد يتسع الحديث عنها في مجال آخر. وقد خصص حسن حنفي كتابًا مستقلاً عن الأفغاني درسه لنا في الجامعة. وقد أصدره في نفس التوقيت تقريبًا مع «حوار الأجيال»، وقبل سنوات قليلة من إصداره «حصار الزمن».

والغريب في قراءة حسن حنفي تركيزه على عرض الشخصيات دون الموضوعات. والشخصية الأهم التي يتوحد معها حسن حنفي هي شخصية جمال الدين الأفغاني. وربما يكون تأثره بالأفغاني هو السبب في سيادة الرؤية السياسية على قراءته. فالأفغاني يرى الإصلاح في القمة وليس في القاعدة. ويضع أمله في السلطة ويعتبرها الوسيلة الأمثل للإصلاح. وهي الفكرة التي سيطرت على التيارات الدينية وخلقت ما يعرف بالإسلام السياسي. ويبدو أن موقف حسن حنفي من محمد عبده هو موقف متأثر بالأفغاني في المقام الأول. فمحمد عبده إصلاحي اجتماعي يؤمن بأن الإصلاح يتم عبر المجتمع وليس عبر السياسة. وربما تكون النقطة الأهم أن محمد عبده قد تعاون مع سلطة الاحتلال والخديوي، وأصبح ممثلاً للدين الرسمي في الدولة بتعيينه مفتيًا للقطر المصري. وحدثت القطيعة بين الأستاذ المخلص لمبادئه في الإسلام الثوري، والتلميذ الذي اختار المهادنة ومسايرة السلطة. وحسن حنفي يجد نفسه في الشخصية الأولى، وأبعد ما يكون عن الشخصية الثانية.

ويجد حسن حنفي ضالته المنشودة في عبد الرحمن الكواكبي. فليس هناك وسيلة للهجوم على أنظمة الحكم والدعوة للديمقراطية أفضل من التخفي وراء «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد». ويغلب في معالجته العرض

على التحليل والنقد. وتتماهى أفكاره وآراءه مع أفكار وآراء الكواكبي. ويركز فقط على البعد السياسي. وتتحول المعالجة العلمية والأكاديمية إلى ما يشبه الخطبة السياسية. فيتناول الدين والعلم والأخلاق والمال والمجد في علاقتها بالاستبداد، ويضمها جميعًا تحت إطار الاستبداد السياسي. ويتجاهل تحليلات الكواكبي الاجتماعية والثقافية لصالح التركيز على التحليلات السياسية. وكلها تسير في شمولية القراءة السياسية ووفقًا لخطتها.

ويختلف حنفي عن الكواكبي في تأكيده على أن الاستبداد هو نتاج لموروث ثقافي عميق وليس محض نتاج لظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية معيشة. فقضية الحرية والديمقراطية لا ترتكز فقط من وجهة نظر حنفي في أنظمة الحكم وممارستها الاستبدادية والفاشية، بل تمتد جذورها إلى عمق الموروث الثقافي بعد أن ترسخ في الثقافة الشعبية وأصبحت جزءًا من الوعي القومي. وربما تظهر تحليلاته لتلك الفكرة بشكل أوسع في مؤلفات أخرى مثل «هموم الفكر والوطن» ولكنه يكتفي بذكرها عند معالجته للكواكبي. فالكواكبي مادة خصبة للقراءة السياسية.

وبطبيعة الحال فإن كل قراءة تحمل في ذاتها أيديولوجية ما. والأيديولوجية التي تحكمت في حسن حنفي كانت أيديولوجية سياسية تقوم على تثوير الآراء والأفكار. فانتقى حسن حنفي في قراءاته ما يتناسب مع رؤيته البنيوية الثورية. وتلك القراءة من شأنها أن تقضي على ثراء وتنوع الأصول التي قامت عليها النهضة الأولى. فقد اهتم الرواد الأوائل بقضايا الفرد كما اهتموا بقضايا المجتمع. وشغلتهم الرؤى الاجتماعية بجانب الرؤى السياسية. وهو ما تركز عليه قراءاتنا الخاصة. وربما لا نزعم أن لدينا رؤية

بنيوية شمولية مثل رؤية الأستاذ، ولكن ربما تكون رؤيتنا أكثر واقعية، وتقع في تماس أكبر مع روح الفرد والإنسان.

الرواد الأوائل لديهم أفكار عن الحب، والسعادة، والحرية، والجنس، والتربية، والزواج، والفقر، والعمل، والتعليم، ...الخ. وربما تكون أفكارهم بسيطة، ولكنها قد تمثل أساسًا لتجاوز إشكاليات الفكر نحو تكوين فلسفة للوعي الذاتي تتعامل في الأساس مع قضايا الحياة اليومية. وربما تكون أعمق التساؤلات أبسطها. وربما أيضًا تكون قراءتنا ملحة في وقتنا الراهن، كما كانت قراءة الأستاذ ملحة وضرورية في وقتها أيضًا. فقضية حسن حنفي تمثلت في مواجهة آثار الهزيمة العسكرية، أما قضيتي فتتمثل في مواجهة الهزيمة النفسية والانكسار الداخلي. فالشباب الآن يحتاج إلى الأمل، ولا تقدم السياسة بكل أشكالها بما فيها القراءة سوى الاحباطات المتوالية. والإصلاح لا يبدأ من ثورة الميادين، بل من ثورة الوعي كما علمنا الأستاذ. وكيف يقوم بالثورة أو الإصلاح جاهل أو فقير، أو فاقد للحب، أو محروم من السعادة، أو مكبوت الرغبة، أو متعصب، أو فاقد للطموح...الخ. فلا يمكن تحرير الأوطان إلا بتحرير الذات أولاً.

سيرة مع الأستاذ

سمعت عن «حسن حنفي» للمرة الأولى عندما كنت طالبًا في مدرسة الفسطاط الثانوية في أوائل التسعينيات. وكان اسمه يتردد على لسان بعض زملاء الدراسة من الشبان الصغار المنتمين إلى التيارات السلفية. كانوا يأخذون منه موقفًا عدائيًا دون أن يقرءوا له شيئًا. فيكفي ما يقوله بعض

شيوخهم في المساجد ليطلقوا عليه أوصاف «الشيوعي» و«العلماني» و«الكافر»... إلخ.

وكانت الدروس بعد صلاة العصر هي المصدر التثقيفي الوحيد للشباب في التسعينيات في ظل جمود نظام التعليم، وفي ظل تركيز الدولة على المواجهات الأمنية دون التركيز على المواجهة الفكرية والثقافية. ولم يكن السبيل إلى التعرف على أفكار التيار التنويري في مرحلة ما قبل الجامعة سهلاً. فأحد مجالات السيطرة للتيارات الدينية كانت دور النشر التي تعيد طبع الكتب التراثية القديمة بأثمان زهيدة يستطيع الشباب الحصول على عدد كبير منها. وكانت الكتب الأكثر انتشارًا هي كتابات ابن تيمية وابن القيم. ورغم ذلك شاءت الظروف أن يقع بين يدي أحد أجزاء «الدين والثورة في مصر»، فكان أول ما قرأته له.

وفي الأيام الأولى من التحاقي بالجامعة، سمعت عن سيمنار علمي يناقش فيه حسن حنفي أحد طلابه في الدكتوراه. وبجرأة غريبة ذهبت وزميل لي لحضور السيمنار. فدخلنا غرفة رئيس القسم ووجدنا الأستاذ يجلس وحوله طلابه في الدراسات العليا. كان الموقف غريبًا علينا وشعرنا بالمهابة الشديدة، وتملكنا بعض الإحراج. طلب منا الجلوس والتعريف عن أنفسنا. فأخبرناه بأننا طلاب في الفرقة الأولى وأن محاضرتنا لم تبدأ بعد.. وأننا جئنا لنستمع. فمد يده خلف مكتبه ودق جرس القسم. فاعتقدنا أن بعض رجال الأمن سوف يدخلون ليلقونا بالخارج، فإذا بعامل القسم يدخل ويطلب منه الأستاذ أن يسألنا عما نريد احتسائه من مشروبات. انفرجت سريرتنا وشعرنا بالطمأنينة وجلسنا لنستمع. سألنا عن رأينا فيما سمعناه، وأشركنا في المناقشة، وتعلمنا منه احترام الآراء مهما كانت مخالفة أو حتى ساذجة.

درس لنا حسن حنفي علم أصول الفقه، والفكر العربي الحديث، ونحن في الفرقة الرابعة. وهو صاحب الفضل في وضع تلك المواد وغيرها ضمن لائحة التدريس بالجامعة. وتلك تخصصات ليست ذات طبيعة فلسفية مجردة. وتغيب عنها أسماء الفلاسفة الغربيين ونظرياتهم الفلسفية الشمولية. فتلك التخصصات هي بحث في تراثنا القديم والحديث، أو بمعنى أدق هي قراءة للأنا في مقابل قراءة الآخر.

علمنا في أصول الفقه كيف نقرأ الأصول وفقًا لمقتضيات الواقع. وشرح لنا مصادر التشريع من قرآن وسنة وإجماع وقياس، وطرح التساؤلات حول ترتيبها، وترك الإجابة مفتوحة ليرتبها كل منا كيفما يشاء. أخبرنا عن «الفقه الأكبر» لأبي حنيفة، وقرأنا معه «الأم» و«الرسالة» للشافعي، و«موطأ» مالك، و«مسند» ابن حنبل. كانت قراءته نقدية فلسفية. يخبرنا أنهم رجال وأننا رجال، هم اجتهدوا في عصرهم، وعلينا الاجتهاد في عصرنا. فكان فقيهًا يتحدث بلغة الفلسفة ويستخدم مناهجها. وكان سؤاله المركزي .. النص أم الواقع؟

وفي الفكر العربي الحديث درس لنا التيارات الثلاثة الرئيسة: التيار الليبرالي، والتيار الإصلاحي، والتيار العلماني. ووضع سؤال واحد في امتحان آخر العام: أي التيارات الثلاثة تنتمي إليها ولماذا؟ وكان يعمل معنا طوال الفصل الدراسي على هذا السؤال. فكان يعرض التيار ثم يسأل عن المؤيد والمعارض، ويقيم بيننا المناظرات والمناقشات.

كانت محاضرات حسن حنفي تمثل صدمة للوعي. وكانت تساؤلاته تحريضية على كل السلطات بما فيها سلطته. فكان يرفض تكرار كلامه

أو آرائــه، ويحثنــا عــلى معارضته والاختــلاف معــه. وربما تسـمح مؤلفاته بالاختــلاف، ولكن حضوره في المحاضرات والتتلمذ على يديه كان حضورًا طاغيًا يسـتبد بمشاعرنا وأفكارنا دون أن نشعر. فشخصيته الآسرة فكريًا لم تترك لنا متنفس من الحرية والتحرر كما كان يأمل. فهو موسـوعي الثقافة، ولديــه قدرة هائلة على تصنيـف المعلومات وتشريحها. يضع نفســه دائما بين ازدواجية الثنائيات. ويتحدث الفصحى بسلاسـة غريبة. ويستخدم إيقاعًا سريعًــا في الحديث، فلا يـترك مجالاً للحظات الـشرود. وكانت نبرات صوته تلعب بأفكارنا ومشاعرنا. فإذا أرادنا أن نعارض احتدت نبراته واشتد صوته، وإذا أرادنـا أن نتعاطـف انخفضـت النبرات وأخذتنا في عــالم من الأحلام. كان مسـتبدًا ناعمًا يطلب منا معارضته وهـو يعلم أننا لم نعد نملك ما يمكننا أن نعارضه به.

درس لي «الفلسفة الإسلامية» في تمهيدي الماجستير، وقرأ لي بحثًا بعنوان «الثورة الإسلامية في إيران». ومن النادر أن يُبدي إعجابًا في العلم، فهو يرى العلم موضوعي مجرد، ورغم ذلك أعجبه البحث وأشاد به، ولم أشعر في ذلك البحـث أني أعيد تكرار أفكاره عن الإسـلام الثـوري، ولم انتبه في وقتها إلى خطـورة الفكرة، وكيف أن الثـورة الإيرانية قضت على التعددية السياسـية وعلى التيارات المدنية والعلمانية. واكتفيت باعتبار ذلك (خطأ هامشي) ولم أدرك أنه (خطأ كارثي) في تاريخ أمة.

عُينت معيدًا بقسم الفلسفة. وتخصصت في العصور الوسطى المسيحية. وكان حســن حنفي مشرفًـا على السـيمنار العلمي الذي يُقام شـهريًا. فكان يخصص جلسـة لأحد الأسـاتذة، ثم يخصص الجلسـة في الشـهر التالي لأحد

المعيدين أو المدرسين المساعدين. وجاء دوري في السيمنار وكان الموضوع عن «موقف توما الأكويني من المرأة».

وقد حدث موقف في هذا السيمنار لابد من ذكره. فأثناء عرضي للموضوع، سمعنا صوت انفجار هائل لم يعرف أحد مصدره. وعلمنا فيما بعد أن هذا الصوت قد سُمع في عموم القاهرة وأنه ربما نتج عن تدريبات عسكرية في منطقة قريبة من العاصمة. وعندما سمع الحضور صوت الانفجار فزع الجميع وهرب معظمهم خارج القاعة. وكنت أود الهروب معهم لولا أن الأستاذ ظل جالسًا بجواري وكأن شيئًا لم يحدث. فتحرجت أن أجري وظللت أدعو في نفسي لكي يقوم هو حتى أتمكن أنا من الجري خارجًا. ولكنه ظل ثابتًا كالصخر، وانتظر عودة الجميع بعد أن تبينوا أنه لا يوجد شيء بجوار الجامعة. وعندما هدأ الجمع، وعاد الحضور إلى مقاعدهم، ظل ينظر إليهم للحظات في سكون، ثم قال: ليست هناك مشكلة، اعتبروا أنفسكم عراقيين للحظات، أو فلسطينيين، فهؤلاء تسقط على رؤوسهم الصواريخ ليلاً ونهار، ثم طلب مني استكمال الحديث.

وفي كل عام في المؤتمر السنوي للجمعية الفلسفية كان يضع اسمي من بين المتحدثين في الجلسة المخصصة للعصر الوسيط. فكان يتعمد أن يعطي الفرصة لشباب الباحثين ويضع أسماؤهم بجانب أسماء الأساتذة الكبار. وبعد المؤتمر يدعونا لحضور ندوات الجمعية بالإسكندرية بالمعهد السويدي. وكانت الجمعية تتكفل بمصاريف الانتقال والإقامة، ولولا جهود حسن حنفي في الجمعية الفلسفية لما استمعنا إلى الأساتذة العرب والأجانب، ولما استمعوا إلينا. وساعدت قيمته لدى الباحثين في العالم العربي ودول العالم

على الحرص بالمشاركة المستمرة في فعاليات الجمعية الفلسفية التي ترتبط كليًا باسم حسن حنفي.

وشجعني الأستاذ بالمشاركة في ندوات مستقلة بمقر الجمعية، وكان منها «مفهوم المواطنة في العصر الوسيط»، و«الدولة المدنية»، و«أنماط تدوين السير الذاتية في العصور الوسطى». وكان أكبر تشجيع لي عندما قدمت له نصًا مترجمًا للقديس توما الأكويني بعنوان «في نظام أهل الحكم»، وكان كل ما أتمناه أن أسمع منه بعض كلمات الإعجاب للمجهود المبذول في الترجمة. فطلب مني ترك النص ليقرأه، وعندما عدت لأعرف رأيه وجدته قد كتب عليه تقديمًا بخط يده يشيد فيه بمحاولتي التصدي لترجمة نص كهذا. وقال لي أبحث عن دار نشر، وإن لم تجد، فسوف أنشره لك على نفقتي الخاصة. وكان بالفعل أول أعمالي المنشورة.

ناقشني في رسالتي للماجستير عن «الفلسفة السياسية عند توما الأكويني»، وأشرف علي رسالتي للدكتوراه في «العلاقة بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية». وهي فترة التعلم والتلمذة الحقيقية. والأستاذ مشرف صارم، يهتم بأدوات البحث وتفاصيلها، ويحتاج إلى طلاب من نوعية خاصة يتحملون مشقة البحث والصبر لسنوات طويلة لإنجاز عمل علمي حقيقي. لا يترك للطالب حرية التعلم، ولكنه يترك له حرية الإبداع.

ومنزل حسن حنفي عبارة عن مكتبة هائلة بها شتى فروع المعرفة. كنت أذهب إلي منزله لأحصل على المراجع التي احتاجها. والأستاذ دائم الأسفار. وقبل كل مرة يسافر فيها كان يسأل شباب الباحثين في القسم عن المراجع التي يحتاجون إليها من الخارج. كان يحضرها لهم على نفقته

الخاصة في وقت كان الحصول فيه على بعض المصادر والمراجع شبه مستحيل.

تصادف وجودي في منزله ليراجع لي فصل من فصول رسالتي للدكتوراه عندما تلقى اتصالاً هاتفيًا يعلنه بفوزه بجائزة الدولة التقديرية في 2009م. تلقى الأستاذ الخبر ببساطة غريبة. ثم أغلق سماعة الهاتف، ورفعها مرة أخرى ليطلب أحد الأساتذة في إدارة كلية الآداب. أخبره بأنه يتبرع بقيمة الجائزة لشباب الباحثين بالكلية. وسألته عن قيمة الجائزة ماليًا، فاكتشفت أنه مبلغ كبير. فقلت له ألا يمكن أن تحتفظ ببعض المبلغ، وتتبرع بالبعض الآخر؟ فقال لي الشباب في حاجة إلى تلك الأموال أكثر مني، فربما يحتاج بعضهم إلى السفر لحضور مؤتمر ولا يجد ثمن التذكرة، أو يحتاج إلى شراء مرجع لا يجد ثمنه، ثم تناول الأوراق ليستكمل تصحيح الأخطاء.

وفي 2014 تلقى قسم الفلسفة خطابًا يتبرع فيه الأستاذ بمدخرات عمره للقسم، وكان المبلغ مليون جنيه يخصص معظمها للفعاليات العلمية والأكاديمية، وبعضها مخصص لظروف طارئة قد يتعرض لها بعض عمال الكلية أو موظفيها.

ولا يمكن للكلمات أن تعبر عن إنسانية الأستاذ ومواقفه الكريمة. وهو ليس في حاجة لذكر هذه المواقف أو الكتابة عنها. وأعلم أن تلك الكلمات ربما ستغضبه كثيرًا، ولكن الشباب يحتاجون حقًا إلى المثل والقدوة الحسنة.

كان حسن حنفي يدافع عن شباب الباحثين، ويتصدى لمحاولات إقصاؤهم أو تهميشهم أو ظلمهم، وكاتب هذه السطور شاهد حق على ذلك. فلولا تدخل حسن حنفي في مسيرتي الأكاديمية لما تمكنت من الاستمرار في

العمل الجامعي. وله الفضل بعد الله سبحانه وتعالى فيما أنا عليه، مع الاحتفاظ بالتفاصيل التي أتمنى أن تُمحى من الذاكرة. وتتجاوز أستاذية حسن حنفي فكرة الإشراف على الماجستير أو الدكتوراه، فهو أستاذ في تكوين الوعي في المقام الأول. وربما لا توجد علاقة تسير في خط واحد مستقيم. فكل العلاقات تمر بمنحنيات ومنعطفات. وتبقى هذه السطور في محبة الأستاذ، اعترافًا بإنسانيته، وفضله على واحد من تلاميذه.